جويا الفنان المنتقم لحبه

(١٧٤٦ م - ١٨٢٨ م)

هل يغفر الفن لصاحبه أن يعربد ويضيّع فى الملذات نصف عمره ؟ والنصف الثانى فى الإبداع وتحقيق رسالة الفن الحقيقية ؟

قد يكون السؤال غريبا، ولكن هذا فعلا ما حدث مع فنان إسبانيا الشهير «فرانشيسكو جويا Goya, Francisco de». فنان موهوب منذ نعومة أظفاره، اكتشف موهبته وعبر عنها بأنامله الرقيقة وهو فى العاشرة من عمره فاتجهت أنظار الناس إليه، وتوقع الجميع له النجاح، ونجح الفنان فى أن ينتزع من المجتمع اعترافه به بل وريادته فى الفن التشكيلى، وانغمس الفنان الشاب جويا فى الملذات وعرف طريقه إلى علب الليل فأخذ يعب من الخمر ويرتمى فى أحضان كل امرأة، وصاحب أصدقاء السوء، ومع ذلك لم ينس فنه والرسالة السامية والمهمة التى تنتظره، واستطاع أن يقسم يومه إلى قسمين فن وإبداع أثناء النهار، وسُكر وعربدة أثناء الليل، فقد كان فنانا شقيا بمعنى الكلمة.

ولد جوبا فى ٣٠ مارس عام ١٧٤٦ فى قرية [فونتيتودوس] بجوار ساراجوسا بإسبانيا من أسرة ريفية بسيطة، وكان طبيعيًا أن يساعد والده فى الحقل ككل أبناء الريف، وجذبت القرية انتباه طفلنا جويا

بجمالها الطبيعى وخضرتها وازدهارهـا وحيواناتها وهدوئها، فأخذ يتأملها ثم يمسـك بالفحم المتخلف من فروع الأشجار المحترقة ويعبر بالرسم على الحائط أو الأحجار عن هذه البيئة الريفية وجمالها ولفتت رسـوماته أنظار أهل قريته وأيقنوا أن طفلهم هذا فنان ينتظره مستقبل باهر، ولشدة إيمانهم بموهبته طلبوا منه أن يقوم بزخرفة ستار كنيسة القرية، ففعل ذلك وهو دون الثانية عشرة من عمره.

رأى أهل القرية ضرورة إتاحة الفرصة أمام جويا لدراسـة الفن حتى يصقل موهبته ويصبح فنانا عظيما، وتبرع أحد الأثرياء بمصاريف السفر والإقامة والدراسة فى مدينة ساراجوسـا عاصمة قريته، وهناك التحق بمدرسة دينية لمدة أربع سنوات درس فيها الكتاب المقدس، ثم تلقى أول دروس الرسم على يدى فنان أكاديمى، وسافر إلى مدينة مدريد العاصمة وكله أمل فى أن يلتحق بأكاديمية «سـان فرناندو» للفنون الجميلة حتى ينهل من الفن ويشـبع رغبته فى معرفة كل شـىء عنـه، لكن الحظ لم يحالفه فأخفق مرتين متتاليتين ومع ذلك لم يفقد الأمل بعد.

انبهـر صاحبنا جويا بحيـاة العاصمة؛ الزحـام والمدنية والحرية واللهو وحياة الليل الصاخبة، وتعرف إلى أصدقاء السـوء فزاد اهتمامه بالملـذات، وارتاد علب الليل يرقص ويغنى ويصادق النسـاء ويعاشـر الغجر، بل ويبارز بالسـيف، وكادت هذه الحيـاة الصاخبة أن تقضى عليه، فقد عثروا عليه ذات صباح فى أحد الأماكن المشـبوهة وقد استقر فى ظهره خنجر.

وعلى الرغم من اهتمامه بصخب المدينة وميله إلى النساء والرقص والغناء إلا إنه لم ينس نفسه كفنان مبدع، ولم ينس أيضًا هدفه فى دراسة الفن التشكيلى دراسة أكاديمية بعد أن فشل فى الالتحاق بأكاديمية سان فرناندو للفنون الجميلة، وحتى يثقف نفسه ذاتيا، انكب على قراءة أعمال الفيلسوفين الفرنسيين العظيمين «جان جاك روسو» و «فولتير» وغيرهما، وكانت مؤلفاتهما ممنوعة من التداول بأمر محاكم التفتيش فى إسبانيا، ولكنه كان يحتفظ فى مكتبته بهذه الكتب وغيرها.

سافر جويا إلى إيطاليا عام ١٧٧٠ لدراسة الفن التشكيلى وهناك ابتسم له الحظ وحصل على منحة دراسية ونصيحة من لجنة التحكيم بأن يقلل من طيشه واندفاعه الأهوج. واستطاع أن يدرس ويتفوق فى أكاديمية الفنون الجميلة فى «بارما» بإيطاليا لعدة سنوات عاد بعدها إلى بلده حيث تزوج من شقيقة فنان تشكيلى معروف ساعده على التعرف إلى المجتمع الأرستقراطى فى العاصمة مدريد، ويقول صبحى الشارونى فى كتابه تحت عنوان «هؤلاء الفنانون العظماء ولوحاتهم الرائعة..»:

انفتحت أمام جويا بعد ذلك أول فرصة للعمل فى البلاط عندما عين مصمما لرسوم النسيج الملكى فى مصنع «سانتا بربارا» وقد استمر عمله أربع سنوات متتالية استطاع خلالها أن يثبت نبوغه وعبقريته وإبداعه، فقد كان الأسلوب الشائع فى تصميمات النسيج المرسوم هو الأسلوب التقليدى الفرنسى الذى يصور الحوريات والشخصيات

الأسطورية بخطوط ملتوية قوقعية الشكل. لكن جويا غير هذه الطريقة ووضع تصميمات (كارتون) لثلاثين سجادة، وقد اتجه فيها إلى تصوير مشاهد من الحياة الإسبانية كالأطفال وهم يلعبون الكرة أو المسابقات بالأرجل الخشبية، ونفذ ذلك بأسلوب جميل مبدع قام فيه بالمزج بين الأشكال الواضحة والأطياف الشفافة. وهكذا استطاع جويا أن يهبط بالفن التشكيلى من سماء الأسطورة والخرافة إلى أرض الواقع والطبيعة والناس فى كل مكان. كانت تصميماته ورسوماته المبتكرة سببا فى زيادة شهرته وتوطيد مكانته الفنية فى المجتمع، وأقبل عليه الجميع؛ الأمراء والارستقراطيون والنبلاء وسيدات المجتمع وعامة الشعب والفتيات يرتمين تحت أقدامه ليرسمهم.

ومن عجب أصبح جويا مديرًا لأكاديمية «سان فرناندو» للفنون الجميلة بمدريد، وهى الأكاديمية التى رفضت قبوله قبل ذلك مرتين طالبا بها.

يبتسم الحظ لفناننا جويا أكثر من ذلك فيموت الملك شارل الثالث ويتولى أخوه عرش إسبانيا – وهو صديق شخصى لجويا – فعينه رساما للبلاط سنة ١٧٩٨، وبذلك أتيحت للفنان فرصًا ذهبية، ربما لم تتح لفنانين كثيرين فهو مدير أكاديمية الفنون الجميلة، ورسام البلاط والقصر، وهو اعتراف به واحترام لفنه، وانطلق فى فنه حتى وصل القمة، وأتيحت له الفرصة فى التعرف إلى مجتمعه أكثر وأكثر، فصادق الشباب وعرف مشاكله، وتعرف إلى الغانيات العابثات ليشبع هواياته

وشـقاوته، وخالط الأمراء والنبلاء وأفراد الأسـرة المالكة وحاشـيتها الأرسـتقراطية، وصدم جويا من الانحلال الخلقى المتستر وراء مظاهر الجـلال والوقار المصطنع، وتعجب لضياع القيم الأخلاقية بين الأسـرة المالكة والطبقة الأرسـتقراطية، وكانت صدمته شـديدة، وتحول بعد ذلك إلى ناقد لهذا المجتمع غير الأخلاقى، واسـتخدم فرشاته للتعبير عن رأيه فى انتشار الفسـاد وضرورة الإصلاح، فأبرز فى صوره خلاعة الأمـراء ووضاعة النبلاء وضيـاع الطبقة الارسـتقراطية وابتعادها عن القيم، فرسـم بومة على كرسـى القاضى، وصور الأطباء بآذان حمير، وعبر عن اسـتبداد محاكم التفتيش، ولوثة مصارعة الثيران، والتقاليد الهدَّامة والخرافات وحماقة الإنسان.

يقول الفنان الكبير حسين بيكار فى كتابه: «لكل فنان قصة»:

«كان فـن جويا فـن رأى.. وكانت ألوانه وظلاله عبـارات يصوغها للإفصـاح عن وجهة نظر خاصة، أو عقيـدة يؤمن بها.. وكانت لوحاته خطبا بليغة، تقذف الشـظايا والحمم فى جرأة وشـجاعة أغضبت منه الكثيريـن.. ففنـان مثل جويا قـدم من صميم الريـف ليعيش فى قلب العاصمة الإسبانية، تؤهله عبقريته للاندماج فى أرقى الأوساط، يجالس الملوك والأمراء والنبلاء، ويصبح مصورًا خاصًا للبلاط الملكى.. فنان كهذا كان من الممكن أن تبتلعه حياة الترف، ويَرضى طموحه بما حصل عليه من مجد وجاه.. ولكن فطرة جويا النقية ظلت تلازمه فوق كل قمة يرقى إليهـا، فلم يُعْمِهِ المجد عن رؤية الحقائق المؤلمة ولم يُحْجِب عنه الثراء

آلام النـــاس وعلل المجتمع الذى كان يتعثر فى صخور الرجعية.. فراح ينقدها بقسوة وشجاعة، دون مبالاة بالنتائج».

العجيب أنه على الرغم من قســوة جويا فــى نقد مجتمعه وبخاصة الأمــراء والنبلاء إلا إنهم أحبوه وأغدقــوا عليه العطاء واحتفظ بمنصبه كرســام للبلاط، ومن أهم أعماله فــى هذا المجال مجموعة لوحاته التى أطلــق عليها اســم «أهــواء» وقد نفذها بأســلوب فن الحفــر «جرافيك» سنة ١٧٩٩.

من أشــهر أعمال جويا لوحتاه «ماجا العاريــة» و «ماجا فى الثوب» ولهاتــين اللوحتين حكايــة طريفة لا تخلــو من الفن والشــقاوة، كان جويا محبا للنســاء، وكانت النســاء تجرى وراءه حبا فى فنه وشخصه وشــهرته، بل إن سمعته الســيئة زادت نســبة المعجبات به، تعرف جويا إلى دوقة ألبا امرأة جميلة ســاحرة تتمتع بشــخصية قوية وذكاء حاد، وإيمان لا يتزعزع بالحرية الشخصية الكاملة، وكانت تعلن ذلك، كل إنســان حر فى حياته وإشــباع رغباته، أما زوجها فكان رجلا ثريا خجولا منطويا ضعيف الشــخصية، أى عكس شخصيتها تماما، من هنا كانت الدوقة لا تعبأ بشــىء، ولا تخاف زوجها أو تهابه، بل ربما كان الوضع عكس ذلك، اهتمت الدوقة بالفنان جويا وطلبت منه أن يرسمها وفعلا صمم لها رسما رائعا، لوحة لها وهى ترقد فى ملابســها الكاملة بما يتفق ووضعها الاجتماعى كدوقة ألبا، ويقال: إنها كانت تقضى معه معظم أوقاتها وتطببه وهو مريض، ولكن المرض أفقده السمع بعد ذلك،

تماما كما فعل المرض بالفنان الموسيقار بيتهوفن، الذى فقد حاسة السمع ومع ذلك تحدى القدر وأهدى العالم روائع موسيقية عديدة بعد إصابته بالصمم، لم يأبه جويا أيضا بالصمم وتحدى قدره، إن الرسم يعتمد على البصر وليس على السمع، وأكثر جويا من إنتاجه وعمله الذى أحبه، فقد كان يعيش ليرسم لا يرسم ليعيش.

وجد جويا فى دوقة ألبا الصديقة التى يتمناها فتاة جميلة حرة، وما إن مات زوجها الثرى «لويس دى فيلا فرانكا» حتى انطلقت مع الفنان إلى أملاكه البعيدة فى الأندلس، ضاربة عرض الحائط بالتقاليد والحداد والملابس السوداء على الرغم من التقاليد الشرقية الإسبانية، وكانت صداقتهما من أشهر قصص الحب والغرام، ودارت الأيام ويبدو أن دوقة ألبا شعرت بملل من علاقتها بجويا فبدأت تهرب منه، بعد أن كانت تهرب معه، وتسرب الشك إلى نفسه فغضب منها وهو المحب الولهان والعاشق المتيم، ولم يجد وسيلة ينتقم بها لنفسه إلا فنه، فرسم لوحة دوقة ألبا صديقته مرة ثانية ولكنها عارية تماما كما ولدتها أمها، وكان انتقاما شقيا فنيا دام عبر العصور (١٨٠٠ - ١٨٠٢)، واللوحتان معروضتان الآن فى إحدى قاعات متحف «البرادو» بمدريد عاصمة أسبانيا.

تغير فن جويا بعد ذلك تغيرًا ملحوظًا، فلم يعد يهتم بالشكل الخالص أو التكوين السليم وهو الأستاذ الأكاديمى والفنان المشهور، ورسام القصر والمسئول عن أكاديمية «سان فرناندو» للفنون الجميلة، بل

اعتبر الفن رسالة كبرى للتعبير عن رأيه فى سلبيات المجتمع وحماقة الاستعمار، وتحولت الفرشاة فى يده إلى مسدس بل مدفع يصوبه ضد أعداء المجتمع والوطن، وأنجز بعد ذلك مجموعة من اللوحات الرائعات الموجودات فى المتاحف حتى الآن.

عندما أرسل نابليون جيوشه إلى إسبانيا عام ١٨٠٨ ونصب أخاه على عرشها استسلم ملك إسبانيا ومعظم رجاله بغير مقاومة، ولكن الشعب الإسبانى ثار ضد الغزاة وقاوم واستشهد فى سبيل وطنه، وألهبت ثورة الشعب مشاعر الفنان فأبدع عدة لوحات تحكى ويلات الحرب، وقسوة الاستعمار، وبطولة الشهداء، من هذه اللوحات لوحة «إعدام الثوار بالرصاص فى مدريد» سنة ١٨٠٩، ولوحتاه ٢ مايو و ٣ مايو سنة ١٨٠٨ صور فيهما الثورة فى المدينة وقيام القوات الفرنسية بإعدام الثوار، وأبدع أيضًا لوحة أهوال الحرب سنة ١٨٠٨، ولوحة اليأس سنة ١٨١٥، وقد تعمد فى لوحاته التركيز على فظائع وويلات وأهوال الحروب، وتصوير جثث القتلى وهى تتلوى تصارع الموت، مما يدفع أى مشاهد إلى كراهية الحروب والعمل على القضاء عليها، وفى هذا تقول فهيمة أمين إبراهيم فى كتابها قاموس مشاهير الفنانين التشكيليين»: «تتسم دائما صور أشخاص جويا فى هذه المرحلة بتوتر نفسى يؤثر مباشرة على المتطلع إلى الصورة..».

هكذا كان جويا فنانا بارعا رائعا، صاحب رسالة، على الرغم من شقاوته وعربدته وعشقه للنساء، وربما كان ذلك سببا فى أن يغفر له ملك إسبانيا أخطاءه ونقده للأمراء والنبلاء والطبقة الأرستقراطية،

ودفاعه عن رجل الشارع. قال «فرديناند السابع» ملك إسبانيا الذى تولى الحكم بعد سقوط نابليون، موجها الحديث إلى جويا: «.. إنك تستحق النفى، بل تستحق الشنق، ولكنك فنان، لهذا سأنسى كل ما بدر منك..».

قضى جويا سنواته الأخيرة بين أشبيلية ومدريد وباريس حرًا منطلقًا بعد أن طلب إعفاءه من مناصبه الرسمية وكان له ما أراد، وعلى الرغم من صممه وضعف بصره ووهن الشيخوخة إلا إنه قام بعمل الرسوم والزخارف فى كاتدرائية أشبيلية، ولم ينس عشقه وولعه بالنساء فرسم بين الملائكة سيدتين معروفتين بين سيدات المجتمع بالخلاعة والتهتك، ورحل جويا عن عالمنا فى ١١ إبريل عام ١٨٢٨ فى مدينة باريس، وقد خلف للإنسانية حوالى ٧٥٠ رسمًا يوجد منها حوالى ٥٠٠ رسم بمتحف برادو بالعاصمة مدريد.

وبوفاة جويا فقدت إسبانيا أكبر فنانيها على مرِّ العصور، وفقد العالم فنانا رائعًا مبدعًا، جعل من الفن رسالة رأى، وعاش حياته يدافع عن أسمى القيم الإنسانية، الخير والحق والجمال، حقيقة أنه كان محبا للنساء منكبًا على الشراب شقيا بمعنى الكلمة، لكن فنه كان رائعًا بارعًا خالدا، مما جعل ملك إسبانيا يسامحه على كل هجومه ويقول له.. إنك فنان..

فهل نسامحه نحن أيضًا ونتأمل ونتمتع بلوحاته الفنية الجميلة المعبرة الساخنة؟

أرجو ذلك..